قصة

اريب بنت اسحاق

بقلم : الاستاذ محمود محمد الحبيب .

كان (رقيق) موضع سر « يزيد بن معاوية » وكثيراً ما كشف له عن ادق شئونه الشخصية ، وقد خرج تلك الليلة من زيارته ، وهو مطرق مبلبل الخواطر والعواطف .. حتى وصل الى جناح القصر الخاص برئيس الدولة ؛ فتقدم وجلا ، وطرق الباب برفق ، فسمع صوت الخليفة يدعوه بالدخول ، ولم يلبث ان فاجأه قائلا « ماوراءك ، يارقيق في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ » فأجاب (مولاي . لقد شجاني مالم يولدكم من هموم) فأحس (معاوية) بان فى الجو شيئا يتطلب اهتمامه ، فقال (علي به فى التو) ..

ودخل الشاب على ابيه وقد كساه ألمه نحولا لم يغب عن معاوية ، فقال (بني ، صارحني بكل شيء) فأجاب (دعني يابتي للهموم تفترسني فاني احس بان اعباء الحياة قد استقرت على كاهلي فلا استطيع منها فكاكا) فبهت معاوية وخاطبه بعطف وهو يأخذ بيده الى جانبه (بحياتي عليك الا ماكشفت لي عما يعذب قلبك ، وثق بأني سأكون لك عونا) فقال (لقد احببت امرأة صاغها الله فتنة وسحرا ، وقد خالط هواها دمي وعظمي ، ولكن يدي قصيرة عنها ولست ادري ماذا ستتكشف عنه الايام) فقال معاوية (ومن هي ؟) فقال (اريب بنت اسحاق ربة الجمال وزوج عبدالله بن سلام) فسكت معاوية وغرق في تفكير عميق ؛ ثم رفع رأسه وغمغم) امهلني يابني وستكون لك اريب عروساً بعد حين) .

وبعد ايام كان عبد الله بن سلام يلبي دعوة خاصة من الخليفة ، ومثل امامه في البلاط الاموي وجلا ، ولكن معاوية افاض عليه وداً وعطفاً ، وغمره بالعناية ، وقرب مجلسه ، وقدمه على سائر الخواص ، حتى بهر الرجل من هذه الالطاف والنعمة وتصرمت الايام عليه وهو ينتقل من مجلس طرب وانس الى مقاصف الغناء ، الى حفلات الصيد ، حتى تناسى بلده وزوجه التي بكت دما بدل الدمع يوم احتضنته بادية الشام في طريقه الى دمشق ..

وفي امسية جميلة دخل رجلان جليلا القدر على ابن سلام هما ابو هريرة وابو الدرداء من الصحابة ، وهما يحملان اليه رسالة الخليفة ، فتكلم احدهما قائلا « ان امير المؤمنين قد اسبغ عليك نعماه وانزلك في قلبه منزلة الولد من ابيه لسجاياك وطيب احدوثتك ، وهو راغب في تزويجك من ابنته فماذا ترى ؟ »

فشعر ابن سلام بان عينيه قد غامتا ، وان ضباباً جميلا قد غمره ، وظن انه قد غرق في حلم عذب ، ثم استفاق رويداً رويداً فقال « اني عبد صادق لمولاي فهذه منة لم اكن اتصورها في المنام فكيف بها حقيقة واقعة فقال الخاطب (ولكنه يشترط عليك امراهو ان تطلق زوجتك الحالية اريب لانه يكره ان تكون هنالك شريكة لابنته في بيتك » .

تنازعت الافكار ابن سلام ، واحس بحرب طاحنة بين العقل والقلب ، واصطخبت في اعماقه مئات الخواطر ... انه يحب اريب حباً جارفاً قوياً ، ولكنه هل يستطيع رد هذه الهبة ويرفض طلب الخليفة الخاص ؟ وتراقصت امام ناظريه الاضواء الحالمة ، والبلاط الاموي ، ومصاهرة رأس الدولة ، وشخصيته الجديدة التي ستقفز الى الطليعة بسرعة البرق ، فاستكان لداعي الهوى الجديد فالتفت الى الرجلين وقال (اشهدا فان اريب طالق مني منذ هذه الدقيقة) فأمنا على قوله ، وتركاه يعيش في احلام رفانة ، وخواطر سعيدة .

ومضت الايام وابن سلام مشوق لبلوغ امانيه ، فرجا من الخليفة الوفاء بالعهد ، ولكنه احاله الى موافقة ابنته .. واحس الرجل باللطمة العنيفة حين قالت له ابنة الثعلب الاموي (كيف اثق بك ، وانت الذي غدرت بامرأة اخلصت لك الود وسكبت على حياتك الوانا من الحب والسعادة ؟ لقد جبلتم ايها الرجال على الخديعة ، ومن المحال ان اقترن برجل يبيع أمسه في سبيل غده » فالجم ابن سلام ، واحس بان الدنيا لن تتسع لشقي مثله ، وخلف دمشق وهو يلعن معاوية الذي هدم

صادته وحياته .

***

ذاع النبأ في الامصار ، وتناقل الناس هذه الحادثة بألم ويبينوا اثر معاوية فيها ، فلم ينج من السنتهم التي سلقته في الشر والجهر .

ووصل « ابو الدرداء » الى العراق لخطبة اريب الى يزيد ، وعرج على بيت الحسين ليقرأه السلام ، ويتنسم في رؤياه انفاس جده الطيبة ، وطال السمر ، ووقف الحسين على مضمون هذه الزيارة الخاطفة للعراق ..

نظر عليه السلام الى السماء نظرة طويلة وهو يستعرض الموقف ، وعرف الدسيسه الكبرى التي مثلت باحكام فخطمت القلوب ومزقت الشمل ، فاوضح الغازها لأبي الدرداء فعراه الوجوم ، ولكن الحسين اعاد الهدوء الى نفسه ، وطلب منه ان يذكره كخاطب لأريب ايضا ، وان يدفع لها مهراً بقدر ماسيدفع يزيد .

واجتمع الصحابي باريب وعرض لها الموقف ، فطلبت منه ان يختار لها واحدا من الاثنين فقال « اخترت لك الحسين فهو الذي تعرفين » وهكذا زفت اليه . . . ووصل النبأ الى عاصمة امية فاذا بالآمال تنهار وهي في اوج نجاحها ، وتكال الصفعة الموجعة لابن سلام بصفعات مدوية ظلت احاديث المجالس والركبان .

***

كانت الشمس ترسل جمرها على المدينة ، فتحيلها الى أتون ملتهب ، واحتمى الناس بالدور ، ليخففوا عنهم آثار هذا الجو الخانق .. وقذف الشارع برجل يقتلع قدميه من الارض اقتلاعا بمشقة وعناء ، ويدب كشيخ حطمته السنون حتى شارف منزلا عرفه لتوه ، فطرق الباب ، ففتح له ، واذا بصاحب الدار يهتف « مرحباً بابن سلام .. ماالذي اعاقك عنا طول هذه المدة ؟ » فرد الرجل بصوت خافت (بعد الشقة ، وفداحة الخطب ، وانقطاع الناصر ياسيدي الحسين .. وقد قدمت اليوم لاسترجاع امانة لي عند اريب ، فهلا تفضل سيدي وامرها باعادتها لي فاني شديد الحاجة اليها في هذا الظرف ؟ » فرد عليه السبط (بكل ترحاب .. هلم الى الداخل فوقدة الحر قد آذتك » ثم اقتاده الى فناء الدار واجلسه في مكان مريح تلطفه نسمات باردة اعادت للرجل هدوءه .. ثم تركه ودخل على اريب فقال لها [هذا ابن سلام قد جاء يطلب وديعته فأديها اليه كما قبضتيها منه] فقال سمعاً وطاعة .. ثم دخلت على الرجل وبيدها بدرة المال فمدتها ، واراد ان ينطق بشيء ولكن الكلمات ماتت على شفتيه ، وصرحت دموع العين المنهلة عن آلام القلب .. فارتفع بكاء اريب وعلا نشيجها .

وكان سيد الفتيان يرقبها عن كثب ، وهو يحس بعاصفة من الرثاء تجتاح قلبه فتقدم الى الباكي وقال [يا ابن سلام ، لم صنعت بنفسك هذا الصنيع ، وكفرت بالنعمة التي يحسدك عليها كل الناس ؟] فلم يجب الرجل ولكنه استسلم الى موجة بكاء شديد .. وارتفع صوت الحسين قائلا [اصدقني الخبر ، هل مات هواك القديم ، ام ان اريب هي النجم المنير في حياتك ؟] فاجاب ابن سلام [والله ياسيدي ، اني بالندم يجرّعني الموت قطرة فقطرة ، ومع ذلك ، فتلك ارادة السماء]

وتحرك الرجل يريد الخروج ، فقد كان يرغب ان يفر ، لان كل دقيقة وهو بجانب ضحيته تزيده شقاء ولعاسة . . . ولكن الحسين اشار عليه بالجلوس

وهنا تجلى الكرم الهاشمي ، وتفجرت النخوة الحسينية فالتفت اليه باسماً وهو يوزع انظاره بين الاثنين وقال بصوت ساحر « يشهد الله اني لم اتزوج مطلقتك الا لتخليصها من براثن الذئب الاموي حينما عرفت بسر المؤامرة الدنيئة . . . خذ امرأتك فهي طالق مني ، وبارك الله لك فيها واثابك الى سواء السبيل »

عرا المكان صمت مفاجئ اذ لم يستطع الزوجان هضم هذا الكرم بسرعة ، وحين هزتها الحقيقة الناصعة انقلبا الى الحسين وامطرا يديه تقبيلا وغسلاها بدموع الفرح .

وأمست المدينة تشوى بهذا النبل وبزواج جديد ...

وتضحك الايام وترسلها قهقهة معربدة مجنونة كانت في سمع معاوية ويزيد كالطارق في عنفها بل اشد واوجع .

بيروت

محمود محمد الحبيب